زينة النساء تنتظر

الى زينة النساء في كل يوم وكل عيد :

« زينة النساء » امراة تنتظر ... مخطوفاً ، مفقوداً ، معتقلاً . قد تكون زوجة او شقيقة او حبيبة ... لكنها امراة . ادركت اليوم معنى مفهوم « المراة كائن قاصر » في قوانين الاحوال الشخصية ، ولمست ابتعادها عن « مركز القرار » وفهمت كيف « تتحمل المراة وحدها مسؤولية الخلل الاجتماعي » .

تقول لك الكثير عن عزلتها التي تكاد تخترق القرون ومئات الاعوام . قد لا تحدثك عنها فهي متعالية على ما اصابها ، منهمكة في ترتيب صقيع بيتها المنزوي الآن : تشرح للاولاد بعض ما طرأ من « استثنائي » على غياب الرجل : فتلفق الاخبار : تارة رحلة اضطرارية ... وتارة اخرى غياب « محدود » . والاولاد يقتنعون على مضض ... يتواطاون معها في تجنب اعلانهم لها عن الحقيقة .

في البدء ، انتظرت طويلاً فلم يات : فبلّغت وطالبت ونشرت وقابلت ، ثم اعادت الكرة متاملة ، مقاتلة ، ناشطة ، ضاغطة ... واذ بها تبدأ باسمه على الائحة التي اعدتها في قائمة المفقودين (المخطوفين ، المعتقلين ..) : اي لا شهادة وفاة ولا شهادة حياة . ثم تبدأ قصتها بالهاتف : نعم ، هو « رَجُلي » ، كيف لا وانا انتظره ؟ ... فالشارع لترى في كل قامة ممشوقة شيئاً يشبهه ، فيخفق جسدها ارتعاشاً ... فتتبعه ، مقتنعة في داخلها انها مخطئة ... ربما كان هو ... ربما هذا الشاب يعرف امراً ما ، سراً ما ... تتسع الدائرة ليلاحقها شبح « رجُلها » الضائع ، لتستيقظ ليلاً عطشى ، تكاد حنجرتها تطقّ من المناداة الذاهبة اصداء ليس إلاّ ... وفي غمرة الحلم ـ اليقظة ، وبينما هي تنتفض فزعاً وبرداً ، يراودها شيء من الفرح « قد يكون حياً يرزق » ، سرعان ما يطفئه العقل و ... « نتيجة الاتصالات » ؛ فيعود شبحه الاصفر المصر على العتبة ... يبتسم لها حيناً ، وتطير من عينه دمعة حيناً آخر : كالشاب الذي خرج لتوه من الطفولة ، حليق الشعر ، ركيك البشرة ، احمر العينين ... والجسد مهلهل تحت ثياب لا يعرف تلفها إلاّ نزلاء ما وراء القبور والقضبان الحديدية .

« اسمع يا نديمي وخليلي : كيف هي المعاملة ؟ هل تاذيت كثيراً ؟ عدّ وساعوض لك عما سرقوه من حرية ... » فيتبخر الشبح الاصفر لتعود صقعة العزلة واللاشيء ... يوما فيوم ، واذا بالعيون تزداد اتساعا وخدود يخترقها جنون العذاب او عذاب الجنون ... فشعر تكاد لا تميز ابيضه من اسوده وزمن يضج بمئات الاعوام من الانتظار والبحث والاتصالات و ... التصميم على ايجاد « الرجل » : حي يرزق ولو من بين انقاض كل معسكرات الدنيا ومعتقلاتها وسجونها الرسمية .

« زينة النساء » هذه ... عيدها هو كل يوم ... كل لحظة .. وكل ثامن من آذار : زينة النساء فخر لنا نحن النساء ثم لاولادنا ولرجالنا ... فيها نركن لعظمة بنات بلادنا اللواتي عرفن ، وبالملموس ، ان مواصلة جمع شتات الهوية الممزقة عملية يُدفع ثمنها بالدم المهدور والارحام الممزقة . زينة النساء يخافها الموت : في موتها انتصار لها ... هي عاجزة عن الموت الآن ما دام احتمال حياة « رجلها » وارد حتى اللحظة .

في كل يوم من السنة ، لن تسهى عن بالنا زينة النساء ... لكن في الثامن من اذار نعلنها « المراة في لحظة البدء » : فيها جلالة الملكات وبسالة البدويات ... ثم تلك المقدرة الهائلة على تلخيص التحرر واختصاره في كل خطوة تقوم بها خلال نهارها المتمادي وليلها الاسود .

سامي محفوظ

19830321_0002_f
VERSO